الرسالة

تصدرها
جمعية الدراسات القبطية
نيوجرزي ـ أمريكا

السنة العاشرة — العدد السابع — سبتمبر ١٩٩١

الخلاص
بين الكاثوليك والبروتستانت والارثوذكس

«المفهوم المسيحي للخلاص ليس هو مجرد وصايا أوتعاليم أومواعيد . بل هو نزول الله واتحاده بنا . فالمخلص هو الله الذي اتحد بنا ويسير معنا»

الطوباوي القمص بيشوي كامل

على مر العصور اعترف المسيحيون على اختلاف مذاهبهم بالرب يسوع مخلصاً لهم . ولكن ماذا يعنون بذلك ؟ كان هذا الاعتراف تعليماً رئيسياً للمسيحيين في الأجيال الأولى . والكتاب المقدس في كل من العهد القديم والعهد الجديد يصف الله دائماً بأنه المخلص ، وخلاص الانسان لا يتم إلا بعمله الخلاصي (مز ٣ : ٨ ، ٥ : ٢٣ ، خر ١٢ ، فر ٤٤ : ٣ ، ٤ ، أش ، ٤٣ : ١١ ، ٦٠ : ١٦ ، ٦١ : ١٠ ، حب ٣ ، مت ١ :٢١ ، لو ١ : ٤٧ ، ٦٨ ، ١٢ : ١١ ، عب ٣ : ١٦ ، ١٨ ، ٢ بط : ١ : ١)

الله هو المخلص ، ولكن كيف ؟ هذه هي المشكلة التي فصلت الآن بين الكنائس المختلفة ، ولكننا لا نرأها كذلك في القرون الأولى . لأن الآباء في القرون الاربعة الأولى شرحوا الكتاب المقدس دون أن ينقسموا الى مدارس مختلفة أو يضعوا نظريات متضاربة للخلاص والكفارة كما نرى الآن ، والذي حدث نتيجة لمحاولة فهم الخلاص على أسس عقلية فلسفية ، ثم محاولة اثباتها بعد ذلك بآيات من الكتاب المقدس .

تطور مفهوم الخلاص في الغرب على مر العصور

وحتى منتصف القرن العشرين تأثر مفهوم الخلاص في جميع الكنائس شرقاً وغرباً ، من كاثوليك أو بروتستانت أو أرثوذكس ، بالتفكير الغربي الذي نظر الى الخلاص من ناحيته القانونية ـ كمشكلة قضائية بين الله والانسان ، ونستطيع أن نلمس بداية هذا التعليم في كتابات العلامة ترتليان في أوائل القرن الثالث . في حين أن الآباء الأولين نظروا إلى الخلاص كعمل الله المحب ، بل ومسؤوليته إزاء البشرية الساقطة . وفي ذلك يقول القديس أثناسيوس الرسولي : «لأنه مما لا يتفق مع صلاح الله أن تفنى خليقته بسبب الغواية التي أدخلها الشيطان .. وكان غير لائق على الاطلاق أن تتلاشى صنعة الله بين البشر ، إما بسبب إهمالهم أو بسبب غواية الأرواح الشريرة .. وما الفائدة من خلقتهم منذ البدء ؟ لأنه كان خيراً لهم لو لم يخلقوا من أن يخلقوا ثم يهملون و يفنون . لأن الاهمال لا يعلن صلاح الله بل ضعفه .. لأنه أمر مشين جداً أن يفنى المخلوق على مرأى من الخالق .»[1]

إلا أن التطور الخطير في لاهوت الغرب بخصوص فهم الفداء أحدثه في أوائل القرن الثاني عشر القديس أنسليم أسقف كنتربري في كتابه «لماذا صار الله انساناً» . فقد شرح الخلاص ـ ليس على أساس الكتاب المقدس ـ بل على أساس القانون الروماني ، وعلى أساس النظام الاقطاعي السائد في عصره . ومع هذا فلا تزال نظريته المعروفة «بنظرية الترضية» تدرس في جميع أنحاء العالم ، رغم زوال عهد الاقطاع ، وتغير التشريعات والقوانين . ولم تكن نظرية أنسليم سوى تطور طبيعي لتفكير الغرب الذي انشغل بخطيئة الانسان ، واعتبرها إهانة لله واعتداء على شرفه . وقد نظر انسليم الى السيد المسيح كبديل للبشرية ، والى سفك دمه على الصليب كأساس للخلاص أن لم يكن العمل الخلاصي الوحيد ، باعتبار أن موت المسيح كان ذبيحة كفارية كافية لترضية الآب عن خطايا العالم كله . لقد دفع المسيح الفدية (مت ٢٠ : ٢٨ ، مر ١٠ : ٤٥) للآب ، وبذلك حصل على الغفران لجميع الخطايا (٢ كو ٥ : ١٩) . وحسب هذه النظرية أصبح التفسير الشائع لقول الرب على الصليب «قد أكمل» ـ أن الدين قد دفع ، والخلاص قد تم مرة واحدة والى الأبد (عب ٩ : ١٢ ، ١٠ : ١٤) . وقد زاد جون وزلي مؤسس المثوديست في القرن الثامن عشر بأن موت المسيح كان كافياً لارضاء الغضب الالهي على البشرية (رو ٥ : ٩)[2] .

ورغم أن العالم المسيحي كله قبل نظرية الترضية كتفسير لعمل الله الخلاصي لاسيما وأن اللاهوتيين خلال أكثر من ثمانية قرون نجحوا في اثباتها بآيات كثيرة من الكتاب المقدس ، إلا أنها تمثل نقصاً خطيراً في مفهوم الخلاص كما أعلنه الكتاب المقدس وكما شرحه الآباء :

أولاً ـ نظرية الترضية المعتمدة على الفكر القانوني الغربي نجحت في تفسير غفران الخطايا ورفع العقوبة بذبيحة المسيح . إلا أنها لم تحل مشكلة البشرية الساقطة إطلاقاً ، لأن الخطية ـ كما يشرح

القديس أثناسيوس الرسولي في كتاب تجسد الكلمة ـ أحدثت تغييراً في طبيعة الانسان والى وقوعه تحت سلطان الموت . ومجرد رفع حكم الموت دون تجديد طبيعة الانسان وخلقته من جديد لا يعطيه الحياة الجديدة و يظل قابلاً للموت :

«وان الفساد الذي حصل لم يكن خارج الجسد بل لصق به . وكان مطلوباً أن تلصق به الحياة عوض الفساد ، حتى كما تمكن الموت من الجسد تتمكن منه الحياة أيضاً .. ولو كان الموت قد أبعد عن الجسد بمجرد إصدار أمر منه لبقى ـ رغم ذلك ـ قابلاً للموت والفساد حسب طبيعة الاجساد (٤٤ : ٤ ـ ٨) وكلام اثناسيوس هنا تعليم كتابي أصيل نراه في كلام القديس بولس الرسول «الذين هم في الجسد لا يستطيعون أن يرضوا الله» (رو ٨ : ٨) ، «من ينقذني من جسد هذا الموت ؟» (رو ٧ : ٢٤) .

ثانياً : نظرية الترضية حصرت الفكر اللاهوتي في الأجيال التالية في صليب المسيح دون جميع الأوجه الأخرى لتدبير الله الخلاص بما فيها عمل الابن من تجسده إلى مجيئه الثاني ، وعمل الآب وعمل الروح القدس .

الخلاف بين الكاثوليك والبروتستانت حول موضوع الخلاص

عندما ظهر دعاة الاصلاح البروتستانتي في القرن السادس عشر ، ورثوا اللاهوت المدرسي العقلي عن الكاثوليك . واذ قبلوا نظرية الترضية وجدوا أنها لم تترك مكاناً للكثير من عقائد الكنيسة . ومادام الخلاص قد تم على الصليب فلا يوجد أي حاجة لأسرار الكنيسة ، ولا أي دور لذبيحة الافخارستيا في القداس . كما أنه لا مجال لحرية الانسان أو أعماله في موضوع خلاصه . وكان على الكنيسة الكاثوليكية أن تجيب على هذه الاعتراضات . وهذا ما فعلته في مجمع ترنت (١٥٤٥ ـ ١٥٦٣ م) الذي نص على أن «التبرير ليس مجرد غفران الخطايا ، بل يشمل أيضاً التقديس وتجديد الانسان ، وذلك بقبوله لعمل النعمة ومواهبها .» وعلى ضوء هذا التعريف وجد المجمع مجالاً لعمل الأسرار كواسطة لنعمة الروح القدس ، كما أمكنه أن يفسر أهمية الأعمال في الخلاص ، إذ أن الانسان يحتفظ بحالة التقديس و ينمو فيها بطاعة الوصايا و بالأعمال الصالحة . وأكد المجمع ـ وهو أحد المجامع المسكونية عند الكاثوليك ـ أن الخلاص قد يفقد بواسطة ما دعاه «الخطية المميتة» وفي هذه الحالة يمكن استعادته ثانية بسر التوبة .

وقد رد البروتستانت على ذلك منكرين أي استحقاقات للأعمال الصالحة (وهو التعبير الذي أدخله المجمع) ونادوا بعقيدة الخلاص بالايمان وحده ـ إيمان بدون أعمال ، و بلا حاجة لأسرار الكنيسة ، وأنكروا ذبيحة القداس .

وفي التعليم البروتستانتي عن الخلاص نرى الفصل التام بين كلمتين كتابيتين ـ التبرير والتقديس . **فالتبرير** الذي هو عمل قانوني بحت ، و يتم في لحظة ـ يرونه عمل النعمة الالهية وحدها ، وشرطه الوحيد هو الايمان (يو ٣ : ١٤ ـ ١٦ ، رو ٣ : ٢٢ ـ ٢٨ ، غلا ٣ : ١١ ، ١ بط ١ : ٩) . وهذا الايمان يتوقف على نعمة الله فقط وهو موهبة منه (أف ٢ : ٨) . أما موضوعه فهو يسوع وحده (رو ٥ : ١٧ ، ١ بط ٢ : ٤) . وليس للمعمودية ولا للأعمال الصالحة أي دور في التبرير . ففي المعمودية ـ لدى البروتستانت ـ يغتسل الانسان بعد تبريره ، أما الأعمال الصالحة فهي نتيجة للتبرير وعلامة للخلاص وليست شرطاً لازماً له كما علّم الكاثوليك .

أما بالنسبة **للتقديس** (أو السيرة المقدسة) فقد علم البروتستانت أنه عمل النعمة وحدها أيضاً ، ونتيجة للخلاص ، و يعكس التبرير الذي يتم في لحظة ، فإن التقديس عملية مستمرة طوال حياة المؤمن . وقد علم جون وزلي في القرن الثامن عشر أن التبرير هو عمل المسيح ، أما التقديس فهو عمل الروح القدس .

ونستطيع أن نوضح التعليم البروتستانتي ببعض اقتباسات :

«الرب يسوع بعد ما بذل نفسه وسفك دمه كفارة عن الخطية ، دخل بدم نفسه إلى قدس الأقداس . لذلك يشهد الله للمؤمن أن **كل شيء قد انتهى وان مسألته قد انحسمت نهائياً** ... وليعلم كل الذين يرتابون في غفران خطاياهم غفراناً إلهياً كاملاً أن ذلك يعد إنكاراً لكفاية ذبيحة المسيح ..

« وكم من الناس ينظرون **إلى عمل الروح فيهم** عوضاً عن النظر الى **عمل المسيح لأجلهم** ، كأساس سلامهم .. فدم المسيح هو الذي يعطي السلام والتبرير التام و يطهر الضمير و يدخل بنا داخل الاقداس .. وعليه تتوقف بركات المؤمن وأفراحه في السماء (رو ٣ : ٢٤ ـ ٢٦ ، ٥ : ٩ ، أف ٢ : ١٣ ـ ١٨ ، كو ١ : ٢٠ ـ ٢٢ ، عب ٩ : ١٤ ، ١٠ : ١٩ ، ١ بط ١ : ١٩ ، ٢ : ٢٤ ، ايو ١ : ٧ ، رؤ ٧ : ١٤ ـ ١٧) ...

«عمل الروح القدس في الكنيسة لا يتم حتى مجيء الرب ، وعمله في المؤمن مستمر إذ يشفع فينا بأنات لا ينطق بها (رو ٨ : ٢٦) .. كما أن خادم ابراهيم لم يتم عمله في أثناء سفر رفقة لملاقات اسحاق إلا بعد وصولها اليه .. **أما عمل المسيح لأجلنا فليس كذلك ، إذ هو كامل وتام بحيث حق له أن يقول «قد أكمل»** ...

«الله قد تفرد بأمر الفداء .. وما كان علينا إلا أن نقف وننتظر خلاص الرب .. ومجرد معرفة أنه خلاص الرب يدل على أن الانسان لم يكن له دخل فيه بالكلية .. **هذا الخلاص لم يشترك فيه الانسان** والا لما دعى خلاص الله . فكونه خلاص الله يقتضي أن لا يكون للانسان يد فيه .»[٣]

أين التعليم الأرثوذكسي ؟

مما سبق نلاحظ أن الكاثوليك والبروتستانت كانوا يجادلون من وجهة نظر واحد وهي الوجهة القانونية التي اشتركا فيها معاً . وقد تطرف كل منهما في ناحيته ـ لأن عقيدة الخلاص بالايمان وحده لا تقل خطأ عن عقيدة استحقاقات الأعمال الصالحة . والواقع أن تعليم الخلاص بالايمان لم يبدأ بالبروتستانت ، بل أخذوه عن القديس أوغسطينوس الذي في محاولته الرد على بلاجيوس الذي علم بحرية إرادة الانسان وامكانه القيام بالأعمال الصالحة دون تدخل النعمة ، نرى القديس يتطرف في الناحية الاخرى منكراً وجود أي حرية تذكر لارادة الانسان بعد السقوط .

كما نلاحظ أن كلاً من الكاثوليك والبروتستانت قد نجحوا في إثبات عقيدتيهما من الكتاب المقدس ، متجاهلين آيات أخرى استخدمها الطرف الأخر . وعندما اضطر اللاهوتيون الارثوذكس خلال القرون الاخيرة دخول ميدان المعركة (بسبب ضغط الارساليات) ، نسوا تقليدهم وتراثهم وأسلوبهم في الحياة والتعليم ، وسقطوا في متاهات الجدل المنطقي الغربي (سواء كان بروتستانتياً أو كاثوليكياً) الذي اعتمد على العقل ، وحول الكتاب المقدس إلى مجموعة آيات منفصلة الغرض منها إثبات عقيدة معينة ، وليس كلمة الله التي نحيا بها .[٤] وحتى مفهوم الآباء الكتابي عن السقوط والخلاص نسيناه ، واقتصرنا في دراستنا على الناحية القانونية كما فعل الغرب . وأصبحنا نحاول عبثاً أن نبحث عن موقف الكنيسة الارثوذكسية بالنسبة للأسئلة التي ابتدعتها العقلية الغربية : هل الخلاص بالايمان وحده ، أم بالايمان والأعمال ؟ اذا كان الخلاص قد أكمل بالصليب فما هو معنى القيامة ؟ هل الأسرار لازمة للخلاص ، ولماذا ؟ ما هي أوجه الخلاف بين ذبيحة الافخارستيا وذبيحة الصليب ؟

نستطيع أن نجد عشرات من أمثال هذه الأسئلة واذا ما قلبنا كتب الآباء فلن نجد أنهم قد تعرضوا لاجابتها . واذ نحاول نحن أن نجيب عليها من الكتاب المقدس ننتهي بأننا انحزنا الى طرف أو الى آخر . بل أن المتبع عادة هو استخدام ردود كل من الطرفين لنفحم بها الآخر .

إننا نحتاج أولاً أن ندرس تقليدنا الذي تسلمناه بشيء من الجدية ـ الكتاب المقدس ، أقوال الآباء في القرون الأولى ، الليتورجيا . وعندئذ سوف نعرف أن هذه الأسئلة لا وجود لها ، وهي خاطئة من أساسها .(٥)

أستطيع هنا فقط أن أعطي عرضاً موجزاً لتعليم الآباء الأوائل عن الخلاص :

أولاً : نظر الآباء إلى أكثر من الوجه القانوني أو القضائي للخلاص (أي غفران الخطية) . الخلاص هو عملية خلق جديدة للانسان عبر عنها الكتاب المقدس بأنها مشاركة للطبيعة الالهية (٢ بط ١ : ٤) و يلخصها القديس أثناسيوس الرسولي في كتاب تجسد الكلمة في عبارة واحدة «لقد صار الكلمة انساناً لكي نصير نحن إلهاً» لقد فشل آدم في الوصول الى الهدف من خلقته فجاء المسيح ـ آدم الثاني ـ ليصل بالبشرية إلى هذه الغاية . «لأنه كما في آدم يموت الجميع هكذا في المسيح سيحيا الجميع» (اكو ١٥ : ٢٢) . ولا يمل أثناسيوس من أن يكرر في كتاباته كيف أن الخطية أحدثت شيئين في الانسان ـ تغيير طبيعته ، ووقوعه تحت طائلة الموت والفساد . وبالتالي فإن عملية الخلاص يجب أن تعالج المشكلتين . وهذا ما فعله السيد المسيح بتجسده إذ غيّر طبيعة البشرية ـ خلقها من جديد ـ وحولها الى طبيعة غير قابلة للموت . التجسد لم يعيد الانسان إلى حالته الأولى في الجنة فقط ، بل حمله إلى رأس جديد هو المسيح وليس آدم (اكو ١٥ : ٢٢ ، ٤٥ ـ ٥٠) .

ثانياً : لا يحدد آباء الكنيسة عمل المسيح الخلاصي بالصليب . ونرى ذلك كثيراً وعلى الأخص في كتابات القديس أثناسيوس والقديس غريغوريوس الناطق بالالهيات . فالخلاص هو عمل الابن الكلمة وهو في حضن الآب منذ الأزل (ابط ١ : ٢٠) وفي تجسده والحبل به (عب ١ : ٦ ، ١٠ : ٥) ومعموديته من يوحنا وصلبه وقيامته ومجيئه الثاني . اكتفي هنا بكلمات القديس غريغوريوس في القداس الالهي : «وباركت طبيعتي فيك» للدلالة على البركة التي أخذتها البشرية بمجرد تجسد ابن الله وأخذه لطبيعتنا . وبكلمات القديس أثناسيوس في «تجسد الكلمة» (٩ : ٤) :

«كما أنه أن دخل ملك عظيم مدينة عظيمة واتخذ إقامته في أحد بيوتها فإن هذه المدينة تتشح بالمجد والشرف .. كذلك مع ملك الكل إذ أتى الى عالمنا واتخذ اقامته في جسد واحد بين أترابه . فقد بطلت كل مؤامرة العدو ضد الجنس البشري منذ ذلك الحين .»

وهذا تعليم كتابي صريح نراه على الاخص في الرسالة الى العبرانيين ـ وهي التي كشفت لنا الكثير عن أهداف التجسد وعن أبعاد ذبيحة الصليب ، والتي أصرت على أن المسيح قد كمّل بالآلام (عب ٢ : ١٠ ، ٥ : ٩ ، ٩ : ٩) إلا أن عمله الفدائي لم يكمل إلا بصعوده ليجلس عن يمين الاب بطبيعتنا البشرية (عب ٤ : ١٤ ، ٦ : ١٩ ، ٢٠ ، ٩ : ١٢ ، ٢٤ ، ١٠ : ١٢ ، ١٢ : ٢) وبمجيئه الثاني . (عب ٩ : ٢٨ راجع أيضاً رو ١٣ : ١١ ، ابط ١ : ٥) وتصر هذه الرسالة على أن المسيح وهو رئيس خلاصنا (عب ٢ : ١٠ ، ٥ : ٩ ، ١٢ : ٢) دخل إلى السماء كسابق لأجلنا (عب ٦ : ١٩ ، ٢٠) .

ثالثاً : ولا يقصر الآباء التدبير الالهي لخلاص الانسان على أقنوم الابن . لأن تعليم الكتاب المقدس الواضح أن الخلاص هو عمل الآب وعمل الروح القدس أيضاً ، ولا يقتصر على عملية الفداء (التي تسمى تدبير الابن) . فخلاصنا هو مشيئة الآب السماوي التي جاء المسيح لينفذها (يو ٤ : ٣٤ ، ٥ : ٣٠ ، ٦ : ٣٨ ، عب ١ : ١ ، ٣ : ١ ـ ٦ ، ٥ : ٤ ، ٨ : ٢ ، ١٠ : ٥ ـ ٧) وللآب دور ايجابي في هذا التنفيذ (لو ٢٣ : ٤٦ ، أع ٣ : ٢٦ ، عب ١٣ : ٢٠) . وعمل المسيح الخلاصي هو في نزوله من السماء ليعود ومعه البشرية وهو عمل لن ينتهي إلا عندما يصير الله الكل وفي الكل (أكو ١٥ : ٢٨) . أما عمل الروح القدس فهو تقديس الانسان ونموه في العلاقة بالله إلى أن يصل الى الاتحاد به . والتقديس جزء لا يتجزأ من الخلاص ، وعمل لم يكن ممكناً إلا بالفداء . فالروح القدس لم يحل على البشرية إلا بعد صعود المسيح بجسده أو كما يقول اثناسيوس في مقاله ضد الأريوسيين «الكلمة اتخذ جسداً لكي ننال نحن الروح القدس . الروح القدس هو الذي يكمل عمل المسيح الفدائي ، و يوصل شركة اللاهوت لكل شخص ، إلى أن نصل في النهاية إلى التحقيق الكامل للخلاص حين يكون «الله الكل في الكل» . الطريق إلى محبة الله الآن نسلكه ـ حسب تعبير القديس أثناسيوس في العبارة الاخيرة لكتاب تجسد الكلمة «بالمسيح وفيه ومعه في الروح القدس»(٦)

رابعاً : بحث الآباء موضوع الخلاص الفردي : لقد أخذ الرب طبيعتنا الساقطة ، وفي جسده دان الخطية ، وقهر الموت ، وصعد الى السموات وجلس ـ بالطبيعة البشرية التي أصبحت طبيعة واحدة مع لاهوته ـ جلس بها عن يمين الآب ، المكان الذي تحدث عنه ليلة صليبه «أنا أمضي لأعد لكم مكاناً وان مضيت وأعددت لكم مكاناً آتي أيضاً وآخذكم .» (يو ١٤ : ٢ ، ٣) وهو هنا لا يتحدث عن مجيئه الثاني لأن بولس الرسول يقول ـ وهو لا يزال في الجسد ـ أنه «أقامنا معه وأجلسنا معه في السماويات» (أف ٢ : ٦) هذا هو الخلاص الذي ناله المسيحيون في كل زمان ومكان .. ولكن كيف نالوه ؟

لقد رأينا كيف أن القديس أوغسطينوس في القرن الخامس ـ وتبعه قادة البروتستانت في القرن السادس عشر ـ قد أصر على أن الخلاص هو عمل النعمة وحدها ، و يناله كل واحد بالايمان . أما الكاثوليك في مجمع ترنت فقد أضافوا شروطاً أخرى لهذا الخلاص الالهي والتبرير المجاني (رو ٣ : ٢٤) ـ وهي الأسرار (كوسائل للنعمة) والأعمال الصالحة . أين هذا من كلام أثناسيوس «الروح القدس يكمل عمل المسيح الفدائي و يوصل شركة اللاهوت لكل شخص» ؟ هذا هو التعليم الآبائي السليم المبني على الكتاب المقدس والذي لا يفصل عمل الروح القدس عن عمل المسيح «لأنه يأخذ مما لي ويخبركم» (يو ١٦ : ١٤) لأن خارج المسيح المجد عن يمين الآب لا يوجد خلاص ، ولا يوجد طريق إلى قدس الأقداس السماوي خارج جسده الالهي «طريقاً كرسه لنا حديثاً حياً بالحجاب أي جسده» (عب ١٠ : ٢٠) . الروح القدس هو الذي يجعل البشرية جسداً واحداً مع المسيح ، ويجعل كل مؤمن عضواً في هذا الجسد (أف ٥ : ٢٥ ـ ٣٢) هذا لا يتم بمجرد الايمان بل بعمل الروح القدس في المعمودية ، حسب تعليم الكتاب «لأننا جميعنا بروح واحد أيضاً اعتمدنا إلى جسد واحد .» (اكو ١٢ : ١٣) . في المعمودية يشترك المؤمن مع المسيح في موته وقيامته :

ـ «أم تجهلون أن كل من اعتمد ليسوع المسيح اعتمدنا لموته ، فدفنا معه بالمعمودية للموت ..» (رو ٦ : ٣ ، ٤)

ـ مدفونين معه في المعمودية التي فيها أقمتم أيضاً معه » (كو ٢ : ١٢) .

المعمودية هي القيامة الأولى التي يبدأ بها المؤمنون حياتهم الروحية فيفقد الموت سلطانه عليهم و يصيرون كهنة لله والمسيح ويملكون معه (رؤ ٢٠ : ٤ ــ ٦) . إلا أن المعمودية ليست سوى بداية الطريق الذي اذا لم نسلك فيه بأمانة قد تفقد الخلاص الذي نلناه بالمعمودية (مر ١٦ : ١٦ ، تيطس ٣ : ٥ ، ١ بط ٣ : ٢١) في هذا الطريق الذي يشمل الحياة كلها يستمر عمل الروح القدس فينا ، الحياة الروحية هي حياة في المسيح و بقيادة الروح القدس ، الروح القدس لا يعمل في فراغ بل في قلب الانسان . هناك نوع من التعاون Synergia (اكو ٣ : ٩) بين الانسان والنعمة الالهية . ولكن ليس معنى ذلك أن الانسان يشترك مع الله في عملية الخلاص . دور الانسان يقتصر على تقديم ارادته الحرة لله ليعمل فيه ، هو فتح الباب ليدخل الرب (رؤ ٣ : ٢٠) . هو رفع الحجر ليقوم الرب بإحياء جسده المائت . النعمة لا تفرض نفسها على الانسان ولا تقوم وحدها بالعمل . الله يريد أن جميع الناس يخلصون ، وعمله الخلاصي كاف وقادر على تخليص الجميع ، ولا يعطل ذلك سوى إرادة الانسان . لأن خلاص كل فرد واتحاده بالمسيح ــ كما عبر أحد اللاهوتيين الارثوذسكيين ــ يستدعي تعاون قوتين غير متكافئتين إلا أن كلا منهما لازم وهما النعمة الالهية والارادة الانسانية .(٨)

وعمل الروح القدس في قلب المؤمن لا يقيد إذ شبهه الرب بالريح التي تهب حيث تشاء . إلا أن عمله يتجلى بصفة عامة ومتاحة للجميع في التأمل في كلمة الله (أع ـ ١٠ : ٤٤) ، وفي الاسرار الكنسية وعلى رأسها الافخارستيا التي في كل مرة فيها نعيش بالفعل ونشارك الخلاص الذي صنعه الرب في تجسده وصلبه وموته وقيامته ومجيئه الثاني (اكو ١١ : ٢٦) . الافخارستيا هي عرس الحمل الذي فيه تتحد الكنيسة وكل نفس فيها بعريسها السماوي ، وتنال أجسادنا فيها عربون القيامة باتحادها بجسد المسيح الذي انتصر على الموت بقيامته (يو ٦ : ٥٣ ، ٥٤) .

هذه الحياة التي نحياها في الروح القدس تبدو مظاهرها وثمارها الطبيعية في الفضائل المسيحية (غلا ٥ : ٢٢) ، وفي حياة التأمل والصلاة ، وفي حياة الخدمة .

وبهذا نرى في وضوح الخلاص كخيط ذهبي يربط للكتاب المقدس من بدايته إلى نهايته ، كما يربطه بالحياة الليتورجية في الكنيسة . بدايته إلى نهايته) . لقد حقق الرب الخلاص بتجسده ، ونلنا عربونه بقيامة نفوسنا في المعمودية حيث أخذنا عطية الروح القدس الذي يعين ضعفاتنا باستمرار (رو ٨ : ٢٦) . بينما أخذت أجسادنا قوة القيامة باتحادها بجسد الرب في الأفخارستيا في انتظار ظهوره الثاني للخلاص للذين ينتظرونه (عب ٩ : ٢٨) . هذا الخلاص نعيشه في الافخارستيا عندما يأتي الرب في ربوات قديسيه . واذ يدعونا الروح القدس والكنيسة للتناول «الروح والعروس يقولان تعال من يسمع فليقل تعال . ومن يعطش فليأت . ومن يرد فليأخذ ماء حياة مجاناً» ، يجيب كل مؤمن «أمين ، تعال أيها الرب يسوع»(٩) (رؤ ٢٢ : ١٧ ، ٢٠) .

دكتور رودلف يني

ملاحظات

(١) تجسد الكلمة للقديس أثناسيوس الرسولي . ترجمة القمص مرقس داوود ٦ : ٤ ــ ٩ .

(٢) نلاحظ في كل من هذه النظريات استنادها إلى آية واحدة من الكتاب أخذت في غير معناها ، كما نلاحظ تعارضها الصريح مع تعليم الكتاب بوجه عام في أمكنة عديدة . كما نلاحظ دخول بعض هذه التفسيرات في كنيستنا . وقد أشارت مجلة الكرازة منذ عدة سنوات إلى الخطأ اللاهوتي الموجود في ميمر العبد المملوك الذي يقرأ في بعض الكنائس يوم الجمعة العظيمة .

(٣) عن تشارلس ماكنتوش في شرح الخروج ــ إصحاح ١٢ ، ١٣ .

(٤) راجع مقال : اللاهوت المدرسي وقصة دخوله إلى الكنيسة (الرسالة ٩ : ٥ (يونيه ١٩٩٠) .

(٥) خلال النصف الأخير من هذا القرن قام كثيرون من اللاهوتيين وعلماء الكتاب المقدس والمتخصصين في دراسات الآباء من مختلف الكنائس في الغرب بدراسة هذا التقليد فأصبحت كتاباتهم تعبر عن روح الكنيسة الأولى . و بذلك سبقونا في هذا المضمار ، وجعلوا تعليم الكنيسة الأولى متاحاً للجميع .

(٦) نلاحظ أن القديس أثناسيوس الرسولي قد استخدم في تعبيره عن عمل المسيح الخلاصي ثلاثة من حروف الجر اليونانية ، وكل منها له دلالة لاهوتية عميقة تتضح من طريقة استخدامها في الكتاب المقدس :

أ ـ فخلاصنا هو بالمسيح (Through ...) أي بواسطة عمله الفدائي لأجلنا (رو ٣ : ٢٤ ، ١ كو ١ : ٣٠ ، كو ١ : ١٤)

ب ـ وخلاصنا في المسيح (in) الذي دخل الأقداس كممثل وسابق للبشرية (اكو ١٥ : ٢٢ ، ٢ كو ٥ : ٢١ ، غلا ٢ : ١٧) ، كو ٢ : ١٠ ، ٢ تي ٢ : ١٠) كما أننا صرنا خليقة جديدة في المسيح في المعمودية (٢ كو ٥ : ١٧ ، غلا ٦ : ١٥ ، أف ٢ : ١٠) .

ج ــ وخلاصنا مع المسيح (with) نموت معه ونقوم معه (رو ٦ : ٣ ـ ٦ ، كو ٢ : ١٢ ، ٢٠ ، ٣ : ١ ــ ٣) ونجلس معه في السماويات (أف ٢ : ٦) ـ هذا الأخير هو الخلاص الفردي الذي يكمله الرب في حياة كل مؤمن ، وهو ما نتأمل فيه في بقية هذا المقال .

(٧) لم يكن خطأ اللاهوتيين المدرسيين في العصور الوسطى هوتعليمهم بلزوم الأسرار وضرورتها للخلاص ، بل كان في فصلهم الاسرار عن عمل الله الخلاصي وجعلها شروطاً مستقلة ومضافة لهذا العمل .

(٨) Lev Gillet: Orthodox Spiritualit, P.23

(٩) هذه العبارة «ماران آثي» . التي جاءت في ختام بعض أسفار العهد الجديد (اكو ١٦ : ٢٢ ، رؤ ٢٢ : ٢٠) . كان يختم بها القداس في القرن الأولي إذ نراها في الديداك (تعاليم الرسل) كما نراها في عدد من القداسات القديمة .

Society of Coptic Church Studies
P. O. Box 714
E. Brunswick, NJ 08816

Non Profit Org.
U. S. Postage
PAID
Lebanon, Pa. 17042
Permit No. 56